اللغة العربية ، وحوار الثقافات

إمكانية بناء علاقات حضارية بين عرب أوربا أو مسلميها ، ومواطنيهم ،

و تحقيق اندماج بناء دون فقدان للهوية الثقافية العربية الإسلامية

إعداد /

دكتور علاء حسنى المزين

أستاذ الأدب العربى المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها

بالجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا

أولا : مقدمة تتضمن تأطيرا لإشكالية الدراسة ، ومنهج تناولها

إن عناية الباحث بمستقبل اللغة العربية فى العالم أجمع ، وهى تتحرك اليوم فى بحر لجى تتهدده العواصف ، والأنواء من كل حدب ، وصوب[1] هى ما يجعله يرى فى هذا المؤتمر بصيص أمل ، ونقطة ضوء وسط ظلمات ، وهو بالضبط ما حفزه للإسهام بهذه الورقة المتواضعة ليدلى بدلوه بين الدلاء، ويشعل شمعة صغيرة قد تتضافر مع شموع أخرى فى إضاءة أركان من تلك العتمة الضاربة ، فضلا عما قد يتاح له من فرصة نادرة للتعرف عن قرب على واقع اللغة العربية فى أوربا عل الاقتراب من الصورة يتيح فرصا أفضل للفهم ، و من ثم تتاح الفرصة لإسهام أفضل ،وأكثر فعالية ينجزه ، أو يعين عليه.

هذه الورقة تحاول أن تقترب من هم أوربى أثار الكثير من اللغط ، وكثيرا من الجدل عبر السنوات العشرين الأخيرة مما لا يخفى أمره على متابع ، وأقصد هنا تحديدا مشكلة اندماج المسلمين فى المجتمع الاوربى وتحولهم إلى عناصر فاعلة فيه ، وهو مطلب ملح تصر عليه الحكومات بل المجتمع الأوربى عامة فيما نرى ونسمع. ولقد يبدو ذلك من جانبهم مطلبا عادلا لا غبار عليه لكنه يحمل مخاطر ضياع الهوية الثقافية المميزة لهذه الجاليات التى يمثل العرب والمسلمون غالبيتها ، و من هنا يطل السؤال الكبير : كيف تتحق تلك المعادلة الصعبة : تحقيق الاندماج الذى يرضى عنه ، وبه المجتمع الاوربى ، وتتوقف به معاناة تلك الملايين التى اختارت عن رضا العيش فى أوربا ،وفى الوقت ذاته تظل محافظة على هويتها الثقافية التى يمثل ضياعها خسارة فادحة قد تطال نتائجها السلبية المجتمع الاوربى ذاته ، وناهيك بخطر أمرئ بلا هوية.

1على كثرة ما نرى من مبشرات كزيادة إقبال المسلمين غير العرب على تعلم اللغة العربية ، و إقبال كثير من غير السلمين على ذلك ، وكثرة ما يعقد من مؤتمرات تهتم باللغة العربية ، وشئونها إلأ أننا ينبغى ألا نخدع عن حقائق الواقع فاللغة العربية تغزى فى عقر دارها من اللغة الانجليزية ، ومن سواها ، ولغة الإعلام فى العالم العربى تكاد تكون عامية صرفا بل المؤسف أن عددا من أساتذة الجامعات ، ومنهم من يدرس العربية فى الجامعة الأزهرية لا يكادون يحسنون الفصحى ، وتغلب عليهم لهجتهم العامية فى الكلام ، ونحمد الله أنهم مازالوا يكتبون بحوثهم بالفصى ! أما الأجيال الجديدة فحدث ولا حرج لتصف كيف تنصرف عن العربية ـ وتسرف فى الاهتمام بالانجليزية بوصفها لغة العصر والفرص و الوجاهة ، ويشايع الآبناء الأبناء فى تلك القناعة للأسف الشديد ، والعربية بعد أن حظيت باعتراف فى الأنظمة التعليمية فى بعض الدول ، ومنها فرنسا سحب الاعتراف بها كما قرأت ، بل إن الاعتراف بها كإحدى لغات الأمم المتحدة الخمس هو كذلك مهدد بصورة أو أخرى ، والعربية توضع فى قائمة لغات العالم المهددة بالانقراض [1]، وإن كنت أشك فى تلك الفرضية إلا أن الأدلة عليها تثير الشك . أفلا يحق أن أقول إن العربية تتحرك فى بحر لجى وتتهددها العواصف ؟

إن اللغة العربية تبدو إذًا حاضرة حضورا أصيلا فى هذا المشهد فهى معلم أصيل من معالم الهوية الثقافية المميزة للعربى ، والمسلم بوجه عام وإن تمارى متمارون وأرجفوا ، وهى كذلك ركيزة من ركائز بناء الذات العربية ،وتماسكها واستقرارها . فإذا عرفنا إن التضلع فى لغة البلد المضيف تبقى هى الهم الناصب ، والشغل الشاغل للمهاجر سواء لنفسه أو لذويه نظرا لضرورات الحياة ، و حاجات المعيشة ، ومتطلبات الاستقرار الاجتماعى تكون لدينا معالم إشكالية جديدة ، وهى كيف يمكن إيجاد مخرج ملائم من تلك الورطة حيث لا تكون اللغة العربية – فى حسه وواقعه إذ يطلبها مظانها ويحرص عليها– عائقا عن حاجاته الأخرى بل عاملا إيجابيا معاونا ؟

إن هذه الورقة ستحاول أن تقترب من هاتين الاشكاليتين المتداخلتين ، وتبحث لهما عن حلول ملائمة وأفكار مبتكرة فى ضوء المواثيق الدولية ، والحقائق الواقعية ، والخبرات التاريخية عسى أن يكون فى ذلك إضافة حقيقة ذات آثار إيجابية لا على واقع اللغة العربية ومستقبلها فى أوربا حسب ، بل على واقع الجاليات العربية فيها وبخاصة تلك الأجيال الجديدة المهددة فى هويتها بل فى صلب عقيدتها .

إن هاتين الإشكاليتين الكبيرتين تقتضيان منا الإجابة على حزمة من الأسئلة التى تمهد للإجابة عليهما ومنها:

1- ما العلاقة بين اللغة ، وبناء الهوية ؟

2- لماذا نهتم باللغة العربية لمسلم يعيش وسط أغلبية غير مسلمة ؟

3- ما قيمة اللغة العربية لمسلم قادم عن غير الناطق بالعربية ، أو للمسلم حديث الإسلام ؟

4- هل تعد اللغة العربية عائقا عن الاندماج ؟

5- هل من سبيل لفض الإشكال بين هاتين الحاجتين ظاهرتى التعارض : الاندماج فى المجتمع الأوربى ، مع الانتماء الوجدانى للحضارة الإسلامية ؟

6- هل من تجارب ناجحة تمثل إجابة على السؤال السابق ، أى تتمثل فيها خبرة ناجحة فى الحفاظ على الهوية الحضارية - ومن عناصرها اللغة العربية - فى وسط غير عربى ؟

وجدير بالذكر أن الباحث سيعتمد فى هذه الدراسة منهجا وصفيا تحليليا يتعرض للواقع، ومعطياته ، كما يغوص حينا فى الماضى مستفيدا من خبراته ، مستشرفا المستقبل الذى نحن بصدد صناعته وبنائه ، والله الموفق

ثانيا: اللغة العربية ، ومسألة الهوية :

لا يختلف الباحثون فى العلوم الاجتماعية على أهمية اللغة – أى لغة - باعتبارها واحدة من مقومات الوجود الاجتماعى ، والحضارى لأمة من الأمم مضافا إليها الدين ، والتاريخ لدى البعض [2] و مضافا إليها

[2] سعيد الأفغانى ، من حاضر اللغة العربية ،ص7

الثقافة ، و ما قد يعرف بالعادات والتقاليد لدى آخرين [3] إلى تفصيلات أخرى لن تضيف الكثير إذ تظل اللغة فى كل تصنيف قسيما رئيسا، وعلى هذا تصح مقولة أحد اللغويين الفرنسيين حيث قال :

(إن القضاء على اللغات – سواء تم بقصد أو بدون – هو واحدة من الأدوات الأساسية لقتل الأعراق)[4] . بل لا نعدو القصد إذا قلنا إن القدرة على التواصل ، والتخاطب باللغة الأصلية بين أفراد مجموعة بشرية معينة قد ترقى لأن تكون من بين أهم حاجات الإنسان النفسية الأساسية التى يرتكز عليها شعوره بالرضا ، وتماسك الذات ، و يتوفر له بها من الاستقرار النفسى ما يعينه على أداء وظائفه الحياتية . وليس مستغربا – والحال كذلك – أن نرى حق الإنسان فى استخدام لغته الأصلية ، واحترامها من بين حقوق الإنسان التى نصت عليها مواثيق الأمم المتحدة ، وهيئاتها[5] ، وإن كان الحق اللغوى لم يذكر صراحة فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة عام 1984[6]إلا أنه متضمن فى الحقوق الثقافية التى نص عليها ، ولست أستسيغ – حقيقة- عدم النص على هذا الحق الذى يتعرض للاستلاب كثيرا ، وتغول القوى على الضعيف فيه فى غير مكان من جنبات المعمورة ، ولذا فلقد قرأت بغبطة ، ورضا ذلك النص الذى ورد فى ميثاق حقوق الطفل فى الإسلام الذى صدر بتعاون المجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة مع اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفولة إذ نص فى المادة السابعة منه تحت عنوان الحفاظ على الهوية على أن :

(للطفل الحق فى الحفاظ على هويته ، بما فى ذلك اسمه ، وجنسيته ، وصلاته العائلية ، وكذلك لغته وثقافته ، وعلى انتمائه الدينى والحضارى)[7].

وإننا لنرى فى تجارب الدول المعاصرة ما ينتج عن منع الإنسان ذلك الحق من حقوقه الأساسية من اضطرابات ، وتوترات ، ومشكلات تصل إلى حد حمل السلاح دفاعا عن هذا الحق الفطرى حين يُمنَعه أصحابه كما رأينا وكما نعرف ونعاين فى إقليم كردستان بشقيه التركي ،والعراقى[8] ،وفى إقليم الباسك فى إسبانيا . وإننا لنرى على النقيض كيف استطاعت دول أن تحل ذلك الإشكال بإقرار أسس التعايش السلمى ، ومنها احترام حق كل مواطن فى استخدام لغته الخاصة فى التخاطب مع بنى جلدته ، وفى ممارسة بعض الأنشطة الثقافية بها بما فى ذلك إقامة الصلوات الدينية ، وحتى إنشاء قنوات إذاعية ، وتلفازية تنطق بتلك اللغة، مادام ذلك لا يضعف الرابطة القومية اللازمة لاستقرار المجتمع ، و أمنه وسلامه ، وهو ما يعتمد فى بعض أبعاده على مدى احترام اللغة القومية المختارة لغة تواصل أساسية ، وهو ما نراه ماثلا فى إطار التجربة الماليزية حيث تتعايش فيها ثلاث قوميات ، لكل منها لغتها ، وثقافتها ، ولكل قومية ، أو مجموعة إثنية كامل الحق فى استخدام لغتها الخاصة فى مناشط الحياة المتنوعة ، وإن كانت إحداها- وهى اللغة الملايوية- قد اختيرت لغة رسمية للبلاد فلم يكن لذلك أى معنى أو صورة من صور الحيف على حقوق

[3] محمد محمد داود ، علاقة اللغة العربية بالسيادة الوطنية ، والهوية ، ص 159

[4] أحمد مصطفى ابو الخير ، اللغة العربية فى القانون الدولى والعلاقات الدولية والمنظمات الدولية والإقليمية ، ص19

[5] أحمد مصطفى أبو الخير ، الاتفاقية الدولية لحماية التنوع الثقافى: قراءة وملاحظ ، ص 49

[6] انظر : محمد الغزالى ، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ، ص231 -273

[7] اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل ، ميثاق الطفل فى الاسلام ط2 ، ص42

[8] لا يسلم من ذلك الشق الواقع تحت السيادة الإيرانية ، لكنه مقموع مضطهد ، وقد لا يصير إلى ما صار إليه ضريباه .

الناطقين بغيرها ، وتم باتفاق وتوافق الجميع[9] ، فاللغة المختارة لغة رسمية هى لغة الإغلبية ، وللأغلبية احترامها فى كل الأنظمة ، والدساتير بالعالم.

إن اللغة القومية ضرورية للإنسان على هذا النحو الذى ذكرنا، من حيث كونها مكونا من مكونات الهوية[10] التى (لا خلاف على أهميتها للافرد والجماعات والامم إذ من خلالها تتمكن من العيش والمحافظة على وجودها وبدونها يتحول الانسان إلى كائن فارغ تافه لاقيمة حقيقية له) [11] فالهوية (هى معايير للعقل والسلوك تحدد معنى الحياة التى لا معنى لها بدون هذه المعايير وغايات الحياة التى لا غاية لها بدونها بمعنى أن الهوية هى إجابة لسؤال الفرد والجماعة عن كيف ولماذا وإلى أين وأين الغاية من الوجود)[12] و هكذا نرى أن الهوية بنهاية التحليل موقف من الحياة ، ومن الأحياء ، ومن تقلبات الأحداث تصبغ سلوك الإنسان بصبغة مميزة يستطيع كل ذى لب حين يرى صاحبها أن يميزها .

ومن هنا فإن اللغة القومية الملتصقة بذات الانسان ، وكينونته ضرورية للإنسان الفرد لأبعاد نفسية واجتماعية وحضارية كما أشرنا ، وهى من طرف آخر لا تقل أهمية و ضرورة للأمم والمجتمعات حيث هى وعاء حضارتها ، ومرآة سموها ، وقوتها ، وآصرة تماسكها ، وعدة بناء نهضتها. ومن هنا نرى اهتمام كل أمة بلغتها القومية ، واتخاذها من التدابير ما يحافظ عليها ، وعلى قوتها وتطورها واحترامها داخل بلادها وخارجها، وعلى متانة ارتباط أصحابها بها فى الوقت نفسه حيث اللغة هنا مظهر من مظاهر السيادة القومية ، وأداة مهمة من أدوات التماسك والترابط الاجتماعى [13]. و ليس يخفى على ذى لب متابع لما يجرى على الأرض ذلك الصراع المحموم بين الأمم القوية على نشر لغاتها ، وتغليبها على سواها[14] وهو صراع فعلى يتجاوز ذلك التثاقف اللغوى الطبيعى المعهود بين اللغات ، وتستخدم فيه من الأساليب المشروعة ، وغير المشروعة الكثير.

وإذا كان الحديث السالف عن أهمية اللغة فى تشكيل الهوية الذاتية للفرد ، أو المجتمع عاما يتناول أى لغة ، فإن اللغة العربية لها فى هذا الباب خصوصيتها بالنسبة للمسلمين بل لغير المسلمين المنتمين إلى الحضارة الإسلامية بلا أدنى افتئات أو مبالغة أو مصادرة على حقوق الغير [15]. فاللغة العربية هى وعاء الكتاب الكريم ، رسالة الله الأخيرة للبشر ، وهى لسان التراث الإسلامى المعجب فى غالبيته ، وهو ما نراه فى ذلك الكم الهائل من الكتب فى شتى العلوم والمعارف ، وهى لسان الحضارة الإسلامية الأول بلا منازع ، وقد ترك اللسان العربى أثرا لا يمحى فى لغات الشعوب الإسلامية كالملايوية / الاندونيسية ، والفارسية ، و التركية ، والأردية ، والسواحيلية ، وغيرها . و العلاقة بين اللغة العربية والإسلام علاقة وثيقة مضطردة لا تنفصم عراها فلقد رفع الإسلام من شأن اللغة العربية من مجرد لغة لأمة مغمورة من أمم الأرض إلى لغة دين ، وحضارة يحترمها إلى درجة التقديس ما يربو على خُمس سكان المعمورة ممن ينطقون لغات شتى ، وهذه الجماهير الغفيرة من البشر تعتبر تعلمها دينا يتقرب به إلى الخالق ، فبها يتلو القرآن الذى لا

---

[9] عبد الغنى يعقوب فطانى ، التعايش الحضارى الماليزى بين نموذج الواقع وإرادة التعميم ، مجلة وحدة الامة السنة 4 العدد 2 /2006

[10] محمد محمد داود ، علاقة اللغة العربية بالسيادة الوطنية ، والهوية ، ص 159

[11] صالح بن عبد الله بن عبد المحسن الفريح الهوية الاسلامية حقيقتها ودور التعليم فى ترسيخها ص 523

[12] المرجع السابق ، نفس الصفحة

[13] أحمد شيخ عبد السلام ، العولمة اللغوية فرصها وتحدياتها لوحدة الأمة الإسلامية ، مجلة وحدة الامة ، السنة 2، العدد الثانى ديسمبر 2004

[14] انظر : أحمد مصطفى عفيفى ، اللغة وحوار الحضارات فى عصر العولمة ، 25-31

[15] كان المحامى المصرى الشهير والسياسى اللامع مكرم عبيد يقول أنا مسيحى دينا مسلم حضارة وثقافة ، فهو ممن فهموا تلك القضية بلا تعصب

تعتبر قرآته قرآنا يثاب عليه إلا إذا كانت القراءة بالعربية ، وبها يقرأ أوراده ، وتسابيحه وأدعيته ويناجى ربه [16].

عن تلك العلاقة الوثيقة بين اللغة العربية والإسلام يقرر ابن تيمية بحق : (إن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربى ، وجعل رسوله مبلغا عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربى ، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين لم يكن من سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان ، وصارت معرفته من الدين) [17] وهو ينقل نقولا عن عمر بن الخطاب تؤكد أهمية اللغة العربية فى البنيان التربوى للإنسان المسلم بما تضفيه على الشخصية من قيم ، وأخلاق ، وبما تتيحه من فرص للاقتراب من النصوص القرآنية ، ونصوص السنة لفهم متقن ، يعصم من الزلل ومن ذلك قوله :(تعلموا العربية فإنها من دينكم)[18] فهى من الدين باعتبارها آلة فهمه ، والتبحر فى علومه (والتمعن فى عبره وعظاته والتمكن من معرفة حلاله وحرمه ، ومطلقه ومقيده ومتشابهه والوقوف على أسرار إعجازه)[19] ، وهى من الدين لأنها تترك أثرا فى ميول متعلمها ، وبنيانه النفسي كما يقول ابن تيمية : (واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر فى العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بينا ، ويؤثر فى مشابهة صدر هذه الامة من الصحابة والتابعين ومشايعتهم تزيد العقل والدين والخلق)[20] ولا ينكر أهمية متابعة السلف الأول فى الهدى الظاهر فى التأثير الوجدانى ، وتعميق الانتماء الدينى ، ومن هنا كانت عناية السنة النبوية بهذا الأمر ن وها نحن نرى ابن تيمية يلمح تأثير تعلم اللغة العربية فى هذا الصدد ، وهى ملاحظة دقيقة للغاية .

ومن أعجب ما يذكر هنا أن صحافيا من أشد الكارهين للإسلام ، وأظنه دانيال بايبس قد لاحظ تلك الخصيصة من خصائص اللغة العربية ، أى ما تحدث من أثر نفسي لدى متعلمها ،وهوعنده أثر يحمل صاحبه على حب القرآن والإسلام واحترامهما، ولذا دعا إلى وقف تعليمها فى الولايات المتحدة ، وهو موقف غاية فى التطرف - كما نرى – ولو صدر من مسلم لقامت الدنيا ولم تقعد ، لكن ما يعنينا هنا هو تلك الملاحظة التى تلتقى مع ما قرره ابن تيمية من قبل، وتؤكده المشاهدات ، وإن كنت أرى أن الأمر هنا ربما انطبق على خالى الذهن المقبل على الدراسة لأسبابه المعرفية أو الاجتماعية ، كما ينطبق بالضرورة على الطالب الناشئ غض العود ، نقى السريرة لكن كثيرا ممن درس العربية بنية مدخولة ، مغشوشة ، وغاية يحركها الحقد ، وطلب الكيد فربما لا ينتفع من ذلك بشئ بل إنى أزعم أن من دارسى العربية من المسلمين من لا تلامس أسرارها شغاف قلبه ، فهو فى ظلماته لا يكاد يستبين سبيلا ، وإن شكوى غير المسلمين فى البلاد العربية من تدريس النصوص الأدبية المأخوذة من القرآن ، والأحاديث النبوية لأبنائهم إذا كانوا فى المدارس الوطنية ببلادهم إنما هو نابع كذلك من شعور بذلك التأثير الخفى للعربية فى النفس البشرية ، وإن موهوا على ذلك بكون النصوص ذاتها خطرا على معتقدات أبنائهم ، فالمعتقد الراسخ أو الذى تتردد أصداؤه على قلب الناشئ وعقله منذ نعومة أظفاره ليل نهار ما كان ليهتز بدرس كلمات من دين آخر دقائق معدودة [21] وإلا فقد درس ملايين الطلاب فى كل الدول الإسلامية عبر التاريخ اللغة العربية ، واستظهر بعضهم

---

[16] للتوسع انظر: يوسف القرضاوى ، الثقافة العربية الاسلامية بين الاصالة والمعاصرة ، ص23 -24

[17] ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، ص 402

[18] ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، ص 470

[19] تركى بن سهو بن نزال العتيبى ، حاة الشعوب الإسلامية إلى اللغة العربية ، ص 114

[20] ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم ، 402/1

[21] من عجائب ما أسجله ، وأنا أعد هذه الورقة ، أن مرشحا علمانيا للرئاسة بمصر يغازل النصارى فيها لينال أصواتهم بادعاء أنه سيحذف من كتب

عشرات النصوص من القرآن كنماذج بلاغية راقية ترقى بأساليب تعبيرهم ، و لم يتحول هؤلاء ليعتنقوا الإسلام.

هذا ، ولا يقتصر دور العربية على ذلك الأثر النفسي ، ولكنها قد تكون عاصما من الانحراف الفكرى لمتعلميها (وقد زاغ من زاغ عن هذا الدين بالجهل فى علوم العربية وحمل الكلام العربى على غير وجهه) مصداقا لما قال عالم العربية الفذ ابن جنى (إن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها فإنما استهواه واستخف حلمه ضعفه فى هذه اللغة الكريمة الشريفة التى خوطب بها الكافة)[22]

هذه الفوائد الجلية التى يجنيها متعلم اللغة العربية فى بناء الشخصية الفريدة ، وتشكيل الهوية المتميزة ، قد تكون فى مقدمة ما دعا علماء الإسلام عبر العصور أن يجعلوا تعلمها واجبا على كل مسلم استنباطا من دلالات نصوص الوحيين ، ومقاصدهما ، وإن كانوا اقتصروا على ما تصح به عبادة المرء ، وصلاته تحديدا.

لقد كانت العربية عبر تاريخها مذ ارتبطت بالإسلام مصدر اعتزاز ملايين المسلمين ، وظهر على مدار تاريخ الإسلام من ينافح عنها من غير العرب الأقحاح من فاقوا عددا من نافح عنها من بنيها ، بل إن علوم العربية الكبرى إنما وضعت على أيدى هؤلاء، وكثير من عيون تراثنا العربى إنما كتبت بإيدى رجال من غير العرب وهم فى بيئاتهم غير العربية حيث لا ننسى سيبويه ، والبيرونى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن خرداذبة ، والبخارى ، مسلم والنسائى ، والقشيرى ، و القزوينى ، وولى الله الدهلوى ، وابن جنى ، وابن سيده وغيرهم كثيرون . ولقد عرفت أوربا نفسها نماذج مميزة من علماء أفذاذ عاشوا فى كنف الحضارة الأوربية ، وأنتجوا ، وأبدعوا بالعربية دون أن يفقدوا هويتهم المميزة ، وانتماءهم المتميز كالأدريسى صاحب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) وهو من أهم ما وضع فى علم الجغرافيا قديما ، وقد صنعه وهو فى بلاط الملك الصقلى غليوم الثانى الذى عاش فى كنفه كأحد أفراد بلاطه ، ويروى عن تأثيره فى هذا الملك الكثير، كما يذكر هنا الحسن الوزان المعروف باسم ليون الإفريقى الذى عاش كذلك فى روما واحدا من بلاط أحد باباواتها ، وبرغم إرغامه على التنصر إلا أنه لم يفقد لغته ، وانتماءه الحضارى ، وعاد بنهاية المطاف إلى بلده بالمغرب.

وهكذا فإن لدراسة اللغة العربية أثرا لا ينكر فى تشكيل الهوية وبناء الشخصية ، ولا ينبغى أن يتهاون المسلمون فى الغرب فى هذا الأمر تحت أى دعوى أو ظرف من الظروف فلا دراسة العربية تخلف ، ولا هى ترف لا لزوم له ، ولا هى حاجة هامشية للإنسان المسلم والعربى بخاصة ، ولا هى بنهاية المطاف تمثل عائقا لدراسة لغة الوطن الذى يعيش فيه الفرد بل قد تكون عاملا مساعدا.

ثالثا : اللغة العربية ، وإشكالية الاندماج الاجتماعى:

الطلاب ما بها من آيات قرآنية وأحاديث أو يضيف للمساواة أسطرا من الإنجيل ، فهل يدرس الطالب النصرانى تلك الآيات فى مقرر اللغة العربية إلا لما فيها من نموذج متميز للغة العالية فهل لغة الانجيل الركيكة بمقياس فصاحة اللغة العربية تقارن بالقرآن ؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

[22] المرجع السابق صئ123

قد يكون ضروريا أن نتعرف على المقصود بالاندماج الاجتماعى ، وبخاصة وفق ما يفهمه من يلحون عليه ، ويسعون له من الغربيين ، فهى ضرورة علمية منهجية لهذا البحث ولغيره حيث الحكم على الأمر فرع من تصوره ، وهى ضرورة من ناحية أخرى إذ تعصمنا من الوقوع فى مصيدة المصطلحات التى يعانى المسلمون على وجه التحديد منها كثيرا كما أشار أحد أئمة المساجد فى فرنسا حيث قال : "أخشى أن يُستعمل مصطلح الاندماج، كما استعمل لفظ الإرهاب، فهي كلمة مطاطة. فماذا يراد من المسلمين في قضية الاندماج؟ هل المطلوب أن ينسى المسلم هويته ، وأن ينسى حضارته وثقافته ودينه ولغته، وأن ينسى كل شيء؟ هذا في بعض البلاد للأسف هو المفهوم السائد للاندماج، ليذوب المسلم في المجتمع بحيث لا يبقى له من ثقافته ودينه، بل من اسمه شيء)[23] إن هذا التخوف البادى فى هذه المقولة له ما يبرره فى أرض الواقع ، وهو تحديدا ما يجعل الأمر ملتبسا ، وفى حاجة للكثير من الإيضاحات المطمئنة .

يعرف فرانكو فرتينى نائب رئيس المفوضية الأوروبية المقصود بالاندماج من وجهة النظر الاوربية بقوله : إن"الاندماج يعني أن يتفق الناس على نفس المبادئ الرئيسة، أي أن المهاجرين يجب أن يقبلوا القوانين والأسس والقيم الرئيسة المتبعة في أوروبا مثل حقوق الإنسان والمساواة بين الرجل والمرأة وغيرها. ويجب على كل من يرغب في الاندماج في دول الاتحاد الأوروبي أن يحترمها"[24]. ولا يخفي فرتيني مطلب الاتحاد الأوروبي بأن يكون الإسلام في دياره "إسلاماً أوروبياً". وتعقيباً على هذا المطلب يقول بعض المسلمين إن الدعوة إلى إسلام أوروبي "ليس أمراً يعني هدم الإسلام نفسه، لأن خطوط الإسلام العامة وأصوله الأساسية ستظل محفوظةً، ولا تنازل عنها. والبعض يسأل: لماذا يستطيع الصيني أو الهندي أو المكسيكي أو غيرهم أن يعيشوا في هذه المهاجر الغربية ، من دون أن يفقدوا هوياتهم الأصلية، وهذا ما لم يُطلب من المسلمين أصلاً، وهو سؤال قاس وخشن، ولكن يجب أن نطرحه على أنفسنا قبل أن يطرحه الآخرون، الذين يتحرجون من طرحه حتى لا يُتهموا بالعنصرية[25].

وبرغم أن هناك تباينا بصورة ما بين مسلمى أوربا أنفسهم حول هذه القضية بين قائل بأن الأصل هو ربط المسلمين فى أوربا بإخوانهم فى العالم الإسلامى ، بحيث يظل لديهم شعور الانتماء للحضارة الإسلامية عاملا من عوامل الحفاظ على الهوية ، والخصوصية الثقافية ، وعاصما من الذوبان ، فهناك رأى آخر لا يرى مانعا من ذلك الاندماج بشروط تجعل من الأمر إيجابية تضاف لرصيد المسلمين لا العكس ، وقد درس المجلس الإوروبى للافتاء والبحوث الأمر ، وانتهى فى البيان الختامي لدورته العادية السابعة عشرة المنعقدة بمدينة سراييفو/ البوسنة والهرسك في مايو 2007 إلى (أن مواطنة المسلم فى المجتمع الأوروبي أمر مشروع من حيث المبدأ، تسعه مقاصد الدين الإسلامي، إذ تمثّل هذه المواطنة جسراً بين العالم الأوروبي والعالم الإسلامي مما يعود على العلاقة بين الطرفين بالخير. وهي لا تخالف الولاء الشرعي، إذ لا يلزم من وجود المسلم في غير ديار الإسلام الالتزام بما يخالف دينه من مقتضيات المواطنة، كالدفاع عنها إذا اعتدي عليها، والأصل أن يكون المسلمون في مقدَّمة من يدفع الضرر عن بلده، كما لا يحل له أن يشارك في أي اعتداء تقوم به بلده على أي بلد آخر سواء كان إسلامياً أم لا. ومن واجبات المواطنة التعايش واحترام الآخر، والتزام القيم الأخلاقية كالعدالة والتعاون على الخير، والنصح من خلال القوانين السائدة لإصلاح ما

[23] عواد على ، دمج المسلمين فى المجتمعات الاوربية بين رؤيتين ، دورية المعهد الملكى للدراسات الدينية عمان
[24] المرجع السابق
[25] المرجع السابق

يضر البلاد أو العباد. كما أن اندماج المسلمين الإيجابي في المجتمع الأوروبي لا يتعارض مع مبدأ الولاء والبراء، فإذا ما أعيد إلى معناه الأصلي الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة فإنه لا يكون معارِضاً لمواطنة المسلمين وتفاعلهم مع المجتمع الأوروبي. ويتجلى هذا التفاعل بالمشاركة في التنمية الحضارية أخذاً وعطاءً، التي من شأنها حين تُصبح ثقافة للمسلمين، أن تيسّر الاندماج الإيجابي والمواطنة الصالحة)[26]

ويمكن أن نختتم هذه الفقرة بتأكيد أن الاندماج ليس بالضرورة شرا ، وأن اللغة العربية قد تكون عاملا مساعدا فى ذلك ، وليس عامل إعاقة ، إذ يمكن أن تكون النصوص التى تعتمد لتعليم اللغة متضمنة ما يحث على حسن المواطنة ، وحقوقها من منظور إسلامى . والحقيقة أن نظرة الإسلام فى التعامل مع الآخر نظرة منفتحة متسامحة لأبعد الحدود ، وإن كانت الصورة النمطية المرسومة للإسلام فى المخيلة الأوربية على النقيض من ذلك للأسف ، وهو م يستحق جهدا مضاعفا لتصحيح الصورة الذهنية . ويمكن كذلك خلال عملية التعليم تقديم تلك النماذج المتميزة التى عاشت تجربة مماثلة فى الغربة والاندماج فى مجتمعات مناقضة فى دينها ، وطرق تفكيرها ، ومنهج حياتها لتلك النماذج لكنها أثبتت القدرة على المقاومة ، والحفاظ على الهوية ، بل إن تقوية هوية المسلم التى تسهم فيها دراسته للغة العربية بغير شك ستدفعه نحو مزيد من التفاعل الإيجابى فى المجتمع لأن هذه فى الواقع من متطلبات الانتماء الإسلامى ، وفوائده .

وأخيرا فقد وضع أحد الباحثين شروطا للصورة المثلى لما ينبغى أن يكون عليه ذلك الاندماج ليؤتى ثماره المرجوة ولا يكون عبئا على طرف دون طرف إذ قال :

(ينبغي السعي إلى التحاور مع المؤسسات الأوروبية للاتفاق على مفهوم مشترك للاندماج بحيث تتوفر له الشروط التالية :
أ- أن يكون مُقيّداً بالمحافظة على خصوصية المسلم الممثلة في العقيدة والشعائر والأخلاق والأحكام الشرعية خصوصاً ما كان منها قطعياً .

ب- أن تكون المرونة فيه في سياق ما هو قابل للاجتهاد من أحكام الدين.

ج- أن يتم من خلال احترام القوانين التي تُنظم المجتمعات الأوروبية .
د- أن يكون مبنياً على أساس من البحث العلمي للواقع الأوروبي
هـ- أن يقوم على استثمار الفرص والإمكانات الكثيرة المُتاحة في المجتمع الأوروبي
و- أن يكون قائماً على أساس من الحوار المستمر مع مُكونات المُجتمع الأوروبي الثقافية والسياسية والاجتماعية)[27]

وهكذا ، فقد يكون ذلك المشروع ، مشروع الاندماج بالمجتمع الأوربى لمن يعيشون بين ظهرانيه بالفعل من المسلمين ذا مردود إيجابى على الحضارة الإسلامية ذاتها – وليس فقط على هؤلاء المقيمين المتوطنين - إذا هيأنا من الخطط المحكمة ، والأساليب الفعالة ما يحفظ علي هذه الجاليات دينهم ،

[26] المرجع السابق
[27] عواد على ، المرجع السابق

وانتماءهم الحضارى ، وهويتهم الثقافية ، وأحسنا غرس رسالة حضارية فى نفوسهم يستشعرون بها أنهم منتدبون لأدائها حيث هم فيزدادون تمسكا وتماسكا ، وهى رسالة التبشير بالإسلام دينا وحضارة ، والاستفادة من كل جديد لتقوية أمة الإسلام التى ينتمون إليها بحكم الانتماء الدينى ذاته ، وهنا يبرز دور الأسرة ، والمؤسسات الاجتماعية ، و الثقافية بالغرب كمحاضن أساسية تمثل الأمل المرجو فى استنقاذ تلك الأعداد التى لايستهان بها من أبناء أمة الإسلام .

رابعا : تجارب فى المحافظة على الانتماء الحضارى اللغوى

1- تجربة الحضارمة فى جنوب شرقى آسيا

يعد الحضارمة ، وهم سكان حضرموت الواقعة جنوب اليمن من أنشط الشعوب فى الترحال والهجرة لأغراض التجارة ابتداء ، ثم لأغراض أخرى من طلب التوسع فى الرزق ، أو نشر الدعوة الإسلامية لاحقا. وقد عرف الحضارمة ذلك الطريق البحرى إلى جنوب شرقى آسيا ، والصين قديما ، وكانت لهم أنشطة تجارية مبكرة فى هذه المناطق ، بل كانت لهم مستقرات على طول الطريق فى (مالا بار) و (كجرات) ، و(كانتون) [28] وقد تركت تلك الأنشطة التجارية في هذه المنطقة آثارا ثقافية متنوعة فى اللغة ، والعادات ، بل يعزو كثير من الباحثين استقرار الإسلام فى منطقة أرخبيل الملايو إلى الوجود الحضرمى ، والعربى عموما ، ودوره الفاعل بين شعوب هذه البلاد ، وهو ما لا يبعد كثيرا عن الحقيقة[29].

ويرى باحثون أن تفضيل الحضارم للاستقرار فى بلاد أرخبيل الملايو بكثافة إنما يرجع إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، وإن كنت أرى أن الهجرة التى ارتبطت بتجارة التوابل ثم بغيرها من المواد التى عرفت بها المنطقة ربما تكون سبقت ذلك القرن لكنها شهدت كثافة نسبية خلال القرن الثامن عشر لعوامل بعضها يتعلق بالحضارم أنفسهم ، والمتغيرات فى بلادهم ، والبعض الآخر يتعلق بطبيعة منطقة أرخبيل الملايو ، وما اكتنفها فى القرن الثامن عشر .

وما يعنينا هنا ما يتعلق بنهج الحضارمة ، وما ساروا عليه ، و قد اختاروا العيش بين شعب يختلف عنهم دينا وثقافة ولغة ، فهذا النهج هو ما يمكن الاستفادة منه لاستنباط دروس للجاليات والأقليات المسلمة فى أوربا وغيرها . وأهم ما يلفت النظر أن الحضارمة حرصوا على الاندماج فى المجتمع ربما لكونهم تجارا ودعاة بالفطرة، وهذا الاندماج أوالاختلاط هو الذى أثمر دخول أعداد من سكان البلاد فى الإسلام كما أثمر تأثيرا عميقا فى اللغة والحياة الاجتماعية.بيد أن ذلك التأثير فى اعتقادى إنما انبنى على أمرين :

الأول : شعور الحضرمى أن لديه ثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد ، وأن لديه رسالة تنوير وتحضير ينبغى عليه أداؤها بينهم. فلم يكن ثمة شعور بالنقص أو الدونية ، كما لم يكن ثمة شعور بالاستعلاء على السكان الأصليين بل مجرد اعتزاز بالهوية المميزة ، والعقيدة الفريدة ، والحضارة المتفوقة مع تواضع جم ، وبساطة آسرة . وهو موقف يختلف كل الاختلاف عن موقف المستعمر البرتغالى أو الهولندى أو

[28] قيصر أديب مجول ، الإسلام فى الشرق الأقصى ،ص 15، 17

[29] علاء حسنى المزين ، الاتجاه الإسلامى فى الشعر الحديث بين مصر وماليزيا ، وعلاقته بالثقافة العربية الإسلامية ، رسالة دكتوراه ص 644

الانجليزى للمنطقة مما يوضح سر انتشار الإسلام وتقبل العنصر الحضرمى فى نسيج المجتمع جزءا لا يتجزأ منه إذ أصهر إلى السكان المحليين من أسلم منهم ، وأصهروا إليه.

الثانى : هو شعور أهل البلاد الأصليين بتفوق الحضرمى التاجر أو البائع أو الحارس أو المترجم النساخ أو الداعية خلقيا ، وحضاريا عن نظيره من أهل البلد ، وهو شعور لابد أن يثير الفضول ويثير الإعجاب ويدفع دفعا للتساؤل عن السر الكامن وراء ذلك مما يدفعه حتما للتعرف على الإسلام تعرف معجب مبهور ، ومن ثم يسهل التحول.

إن هذين العاملين كما أنهما أسهما فى حركة المد الإسلامى بالمنطقة فقد كان لهما الفضل فى الحفاظ على التميز الحضارى ، واستقامة الهوية بالنسبة للمسلم ، كما كان لهما الدور الأكبر فى تقوية موقف اللغة العربية بإزاء اللغات المحلية فكانت فى موقف المعطى الحضارى دوما عن غنى وثراء لا المستقبل السلبى.

ولوذهبنا للمقارنة بين واقع المسلمين فى دول المهاجر الغربية ، وبين ذلك الواقع الذى عرضنا لما كان عليه الحضارمة الذين استقروا بارخبيل الملايو لعرفنا سر ما نشكو منه من استلاب الأجيال التى اختارات العيش بأوربا فقد جاء الكثيرون بلا قضية إلا البحث عن الكسب المادى ، وسعة الرزق ، وكان الأكثرون فى الهجرات المبكرة من البسطاء الذين لا يتوفر لهم تعليم دينى مؤثر يعصم من الانزلاق فضلا عن أن يعمق معنى التميز والرسالية . كذلك فقد كان الشعور السائد لدى المهاجرين – وربما لم يزل كذلك – هو شعور الدونية إزاء الغربى الذى هاجروا إلى بلاده ، وكل ما هو غربى ، واليقين العميق بتفوق ذلك الغربى حضارة ، وتفكيرا ، ومنهج حياة ، و لا نبالغ إذا قلنا إن شعورا بالتفوق الدينى للآخر ربما خامر النفوس من منطلق أن الدين الافضل يرتبط بالاقوى ، أو بمن صنع حياة دنيوية أفضل و الإنسان مجبول على اتباع المغلوب للغالب كما قرر بحق ابن خلدون العظيم فى مقدمته[30] ،وهو ما قد يؤدى فى حده الأدنى إلى الانحلال الخلقى ، والتحلل من التبعات الدينية ، وقد يصل بالفرد – والعياذ بالله – فى حده الأعلى إلى الخروج من ربقة الدين نفسه .

إن هذا يبدو بتقديرى الدرس الأول المستفاد من تلك التجربة ، وهو ضرورة تعميق شعور الاعتزاز الحضارى ، واليقين بالتميز العقدى كعاصمة من غوائل الضياع ، والانزلاق فى ما لا تحمد عقباه ، وقد يكون حسنا أن يستشعر المرء المسلم تميز اللغة العربية على سواها حتى يختارها الحق سبحانه لغة كتابه الأخير فهو حينئذ سيدرس لغة الغير باعتبارها مجرد ضرورة حياة ، ولغة آلة دون أن يقع فريسة نسقها القيمى، و منظورها الثقافى .

و لقد كان من عادة الحضارمة حتى أوائل السبعينات إرسال أولادهم فى سن الصبا لتلقى العلم ، وتعلم اللغة العربية فى حضرموت بين من بقى من أهاليهم[31] ، وطبيعى أن تكون تلك الرحلة العلمية التى قد تمتد لدى البعض سنة أو تزيد فرصة ليس فقط لتلقى العلم الشرعى واللغوى ، بل للنهل من منابع الثقافة الذاتية ، والتشبع بالرؤية الحضارية ، واكتساب مشاعر الاعتزاز بها فهى رحلة متعددة الأهداف والفوائد . ولقد

30

31 تعرفت على ذلك من مقابلة خاصة تمت مع عدد من الحضارمة التقيت بهم فى سنغافورة ، وتأكد الأمر بلقاء آخر مع نفر من الحضارم من سكان مدينة سورابايا باندونيسيا ، وهى المدينة التى ولد بها باكثير وعاش طرفا من طفولته ، وقد التقيت بأحد أبناء عمومته ، وهو مهندس نابه كبير السن لكنه كان يتقن العربية ، وكان بيننا حوار ممتع.

لمست بنفسى آثارها فيما قدر لى الالتقاء بهم من الحضارمة ممن توفرت له تلك الفرصة من سكان اندونيسيا أو سنغافورة أو ماليزيا ولقد توقفت تلك العادة للأسف ربما لأسباب اقتصادية أوللاضرابات السياسية ، أو لسيطرة الشيوعيين على اليمن الجنوبى ردحا من الزمن[32]، وخشية الاباء على أبنائهم من غائلة الفساد العقدى والأخلاقى الذى ارتبط بتمكن الشيوعية فى المجتمع ، أى مجتمع .

وأيا ما كان السبب فقد حرم المجتمع الحضرمى بأرخبيل الملايو تلك الوسيلة الحضارية الفعالة للارتباط باللغة العربية ، إحدى مرتكزات هوية المسلم المميزة وبناء النسق الثقافى الإسلامى ، ونظرته الخاصة للحياة . ولعلنا لا ننسى ذلك الحضرمى الأندونيسي الرائع الذى أثرى الادب العربى بأعماله الفذة المعجبة وهو الأديب الراحل على أحمد باكثير رحمه الله فقد كان نسيج وحده ، وأمة من دون الناس[33].

إن تجربة الحضارمة فى أرخبيل الملايو لتؤكد أن من الممكن أن يعيش المرء العربى المسلم ، ويندمج فى مجتمع غير ناطق بالعربية ، وغير مقبل على الرسالة الإسلامية بل ربما كان من أعدائها حينا ، وهو قمين أن ينعم فى ذلك المجتمع بالاستقرار ، والتقدير ، و المشاركة البناءة فى رفعته وتقدمه دون أن يضطره ذلك إلى التخلى عن مقومات هويته ، وشخصيته الحضارية المميزة .

وبرغم اختلاف السياقين الزمانى والمكانى بما يوحى بأن تغير الظروف يجعل من تطبيق ما أسفرت عنه الخبرة التاريخية لتلك التجربة الإنسانية الحضرمية أمرا مستبعدا فان الدراسات أكدت أن طبيعة الانسان واحدة ، وأن فعل التفاوتات الزمنية والمكانية ليس بالكبير، إمكانية الاستفادة من كل تجربة إنسانية تظل ممكنة دوما لمن توجه لذلك .

ولسوف نعرض – بعون الله تعالى - لبعض الدروس المستفادة من تلك التجربة ومثيلتها فى فقرة مستقلة لاحقة .

2- تجربة ندوة العلوم الهندية

تأسست ندوة العلماء بمدينة لكنؤ بالهند عام 1310 هـ بغرض توفير فرصة للتعليم العربى الإسلامى الفعال المنتج للدارسين الهنود ، ومعالجة ما بلغته الدراسات الدينية واللغوية لديهم من عقم ، وضعف انعكس فى نوعية المتخرجين ضعفا مزمنا حتى فى قدرتهم على التعبير بالعربية محادثة وكتابة ، وهو ما ينعكس بالضرورة على أداء الوظائف الدينية المنوطة بهم من ريادة الناس ، وإمامتهم ، وإرشادهم لأمور دينهم [34].

وكان من هدف الندوة أن تخلق تيارا جديدا من الوعى الإسلامى ، واللغوى يجابه سنوات طوالا من ضعف الوعى بالأمرين معا. وكان اهتمامها كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوى فى مذكراته بهتم (بالمقاصد والغايات أكثر من المباحث الجانبية ، والقضايا الفرعية ، وإحياء منهج المتقدمين الذى كان يغذى

انفصل جنوب اليمن عن شماله عام و سيطر على مقاليد الأمر به مجموعة من العسكرتاريا المدعومين ، والمرتبطين ارتباطا عضويا ونفسيا بالاتحاد السوفيتى المنهار ، وقد قدر لليمن أن تعود له وحدته ، ويندمج من جديد شطراه الشمالى والجنوبى بعد حرب دامية بين الطرفين دارت رحاها خلال الفترة من [32]

[33]

[34]

العاطفة والعقل ، ويقوم على فكرة ترسيخ العلم وإنشاء الذوق بدلا من النزاعات والخلافات اللفظية والافتراضات العقلية)[35] كما كانت ترمى (إلى تعليم اللغة العربية كلغة حية نابضة يخاطب بها العرب أنفسهم ، وتكون وسيلة للدعوة فيهم وتنشأ فى طلاب المدارس العربية وخريجيها ملكة الخطابة ، والأنشاء والتحرير)[36] .

لقد كان مشروع إنشاء ندوة العلوم - فى تقديرى - مشروعا تجديديا نهضويا حضاريا افترض أن الأزمة الحقيقية هى أزمة الانسان المسلم ، وأن الخروج من الأزمة لاينبغى أن يبدأ إلا من التعليم ، و أن التعليم الإسلامى وتعليم اللغة العربية قد أصابهما الكثير من الهزال ، وأن حسن تعليمهما ، واتقان الطالب اللغة العربية تحديدا سينعكس إيجابيا فى علاقته بالإسلام ، وحسن فهمه للعلوم الإسلامية ، واعتزازه بالانتماء الحضارى الإسلامى .

يقول الندوى إن هذا الغرض الكبير اقتضى وجود أمرين :

الأول هو المنهج الدراسى الذى يحمل الخصائص والميزات ، ويغنى عن الكتب التى لا تتفق مع هذا المستوى والغرض . والثانى هو وجود معلمين يتفقون مع وجهة نظر تلك المؤسسة وتصوراتها وستحمسون لها ، ويقدمون من أنفسهم نماذج حية عملية لها . [37]

إن المدارس العربية المنتشرة فى شبه القارة الهندية ، بل فى معظم الدول الإسلامية الآسيوية ، وبين الأقليات المسلمة فيها تطبق تطبيقا صارما ما يسمى بالمنهاج النظامى، وهو النظام المنسوب إلى نظام الملك الوزير السلجوقى الشهير الذى أراد من خلال هذا المنهاج أن يقضى على الآثار التى خلفتها حقبة سيطرة بنى بويه على مقاليد الأمور فى دولة الخلافة العباسية ، وكان بنو بويه - كما هو معروف - من أصول فارسية شيعية فحاولوا صبغ الدولة فى مختلف الجوانب بصبغتهم ، وحين قدر للسلاجقة الأتراك أن يلوا الأمر من بعدهم ، ويكون لهم النفوذ على الدولة العباسية سعوا فى إعادة الأمورإلى نصابها ، ووقع عبء ذلك على ذلك الوزير النابه ، الذى أوعز للعلماء بوضع منهج يدرس فى سلسلة من المدارس قرر إنشاءها ليتكون فيها جيل جديد من العلماء الذين يناط بهم إعادة تشكيل عقلية رعايا الخلافة بما يرجعهم إلى هدى أهل السنة والجماعة معتقدا ، وفقها[38].

ولقد كان ذلك المنهاج فى حينه عملا عبقريا مبتكرا آتى أكله وحقق أهدافه ، لكنه للأسف مع الوقت أحيط بما يشبه القداسة ، وأصبح ضربة لازب لا يفكر أحد بالخروج عليه (وجمد جمودا لا حراك فيه وعاد التغيير فيه لكتاب دون كتاب بدعة وانحرافا عن طريق السلف الصالح)[39] حتى صار ذلك المنهاج العبقرى فى حينه عقبة فى طريق الإصلاح ، ومن هنا كان عمل ندوة العلماء خطوة فى الاتجاه الصحيح رغم المعوقات[40] ، وهى خطوة جديرة بأن يستفاد منها بإعادة النظر فيما بين أيدى الطلاب الدارسين للعربية

---

[35] أبو الحسن الندوى ، فى مسيرة الحياة ، دار القلم ، دمشق ، ط1، 1978، ص 139

[36] المرجع السابق ، نفس الصفحة.

[37] المرجع السابق ص 140

[38]

[39] المرجع السابق ، ص 151

55 رأيت بنفسى فى فترة عملى بباكستان بين المهاجرين الإفغان أيام مقاومتهم الغزو الشيوعى لبلادهم ، رأيت الكثير من تلك المدارس المتمسكة

فى أوربا من كتب ، قد تكون هى نفسها سبب العزوف عن العربية، وسر التخلف. ويجب العناية فيما يتم توفيره بين أيدى الطلاب من كتب لتعليم العربية بما يلى:

1- أن تكون ملائمة لأعمار التلاميذ، ومتدرجة تدرج نموهم العقلى حيث يراعى ذلك فى مادتها، ومنهجية بنائها، وتأليفها.

2- أن تكون مادتها مستمدة من بيئة الطلاب ، وواقعهم الذى يعيشون فيه.

3- أن يكون المحتوى الثقافى بالمنهاج مشتملا على قدر لا يقل عن النصف من الموضوعات التى تمت بصلة إلى التصور الإسلامى ، فضلا عن الموضوعات التى تربط الطلاب بحضارتهم الإسلامية ، وتثير مشاعر الإعجاب بها ، والفخر بالانتماء إليها نفسيا ، دون إغفال لما يربطهم بعصرهم الذى يعيشون فيه ، وواقع المجتمع الغربى الذى يحيون بين ظهرانيه ، و لابد من تذكيرهم بدورهم الرسالى ، وواجبهم نحو مجتمعاتهم كمواطنين بهان وأصحاب رسالة اختارهم الله لها إذ كتب لهم أن ينشأوا فى تلك المجتمعات .

4- أن يكون المنهاج مصحوبا بأشرطة سمعية أو بصرية تجديدا لطريقة العرض ، وطرافته ، وإعطاء للنماذج الصوتية النموذجية للاحتذاء.

5- أن يكون من بين أجزاء المنهاج كتب للقراءة الحرة تركز على الشخصيات الإسلامية الفذة فى مختلف مجالات النشاط الإنسانى.

6- أن تكون العناية وافرة بطريقة الإخراج بحيث يكون الكتاب جذابا مشوقا للطالب ، محفزا على القراءة فيه، والاستفادة منه.

خامسا : الخبرات العامة المستفادة من التجربتين السالفتين:

ذكرنا فيما مضى بعض ما يستفاد من كل تجربة على حدة ، وقصدنا إلى أهم ما يستفاد من كل تجربة من دروس ، بيد أن هناك دروسا أخرى لم نشر إليها ، ونجملها فيما يلى:

1- العناية بحفظ القرآن الكريم :

القرآن روح الأمة الإسلامية ، وسر من أسرار بقائها ، وقوتها ، ومنعتها، ولذا فقد كان - ولم يزل - مرمى سهام أعداء الأمة ، و سيظل كذلك فى كل زمان ومكان . ولقد أثبت القرآن الكريم قدرته الفائقة على إبقاء جذوة الارتباط بالأمة ، ودينها ، وحضارتها ، ولغتها فى أحلك الظروف حتى فى زمن الستار الحديدى الذى صنعه الاتحاد السوفيتى الهالك حول المسلمين الواقعين تحت سيطرته استطاع المسلمون بالقرآن أن يصمدوا ضد رياح التخريب العقدى العاتية ، وحين قدر لتلك القوة الغاشمة أن تنهار عرفنا من القصص البطولية التى قام بها بقية العلماء حفاظا على كتاب ربهم الكثير. ن والأمر ذاته تكرر تحت نير النسخة

بالمنهاج النظامى ، فى باكستان والهند وكشمير وأفغانستان ، ووقفت على أحوال طلابها المزرى وبخاصة فى فهمهم للغة العربية رغم ما يدرسون من كتب صعبة عتيقة مثقلة بالشروح والحواشى ،

الشيوعية الأخرى فى الصين وخاصة فى أوجه تسلطها الغاشم فى فترة ما عرف بالثورة الثقافية وسيطرة ما كشف لاحقا بعد الانفتاح من تسلط عصابة الأربعة .

ويحظى تحفيظ القرآن بعناية كبيرة فى دول آسيا الإسلامية ، وأوساط الأقليات بها ، وبرغم أن الطلاب لا يفهمون حرفا مما ينطقون به غالبا إلا أنهم يحفظون القرآن حفظا متقنا ويقرأه بعضهم قراءة تأخذ بمجامع القلوب.

من هنا فمن أوجب الواجبات الملحة على مسلمى أوربا أن يحرصوا على إنشاء مراكز تحفيظ القرآن لابنائهم، ويستفيدوا فى ذلك من كل سبل التقنية الحديثة المتوفرة بالغرب مما يمثل فرصة إضافية وقيمة مضافة ،و ليوقنوا أنه بقدر عنايتهم بالقرآن حفظا ودرسا بقدر صمودهم ، وثباتهم فى وجه محاولات التذويب والاستلاب والاستلحاق.

2- الارتباط بالمسجد

للمسجد أهميته الكبرى فى المنظور الإسلامى فهو ليس مكانا للعبادة فقط بل هو منظومة متكاملة للتربية الروحية والاجتماعية ، والآيات والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة ، ومن أدعاها للتأمل والنظر تلك التى تعتبر مجرد المكث به عبادة ، ولعل ذلك راجع لما يكتنف المرء من مشاعر ، وأحاسيس مؤثرة ،فضلا عما قد يمارس خلال فترة مكثه من عبادات الذكر والتفكر والتعارف مع غيره من إخوة الإسلام وغيرها.

وعموما فإن أثر المكان فى وجدان الإنسان مما لا ينكر بل هو مما يشاهد ، ويحس. ولقد كان المسجد من أهم أسباب ثبات المسلمين وسط المجتمعات غير المسلمة ،إذ صار بالنسبة إليهم موئلا ورمزا ، ومجمع أنشطة ، وعنوان منهج حياة متميز .

ومن ثم ينبغى العناية بإنشاء المساجد أيا كان حجمها وشكلها ، و توفير فرص ربط النشء بها منذ الصغر.

3- الزيارة الدورية للوطن الأم

كانت هذه الوسيلة كما أسلفنا من أبرز ما تفتقت عنه تجربة الحضارمة فى جنوب شرقى أسيا ، ولقد كان لهذه الوسيلة الفضل فى ارتباطهم ببلادهم ، و حضارتهم، و حسن اتقانهم للغة العربية ، ويمكن اليوم تحقيق ذلك الهدف بأساليب متعددة مهما كانت درجة انشغال الآباء وذلك عن طريق تنظيم أو الاشتراك فى رحلات كشفية ، ومخيمات تربوية ، وزيارات سياحية فضلا عن إرسال الأبناء وبخاصة فى فترات الطفولة المبكرة للعيش فترة فى بيئاتهم الأصلية مع الجد والجدة والأعمام والعمات وسائر الأقارب وهى رحلات لن ينقطع أثرها فى نفس الطفل ولن يعدم الهمتمون بمستقبل الأبناء الأخروى بل الدنيوى بصورة ما وسائل كثيرة مبتكرة مؤثرة .

4- الإقامة فترة فى الوطن الأم لدراسة العلوم الأساسية وتقوية الارتباط بمعالم الهوية وفى مقدمتها اللغة

مرتبطة بسابقتها غير أن الزيارة قد تكون قصيرة عابرة ، غير مؤثرة إلا قليلا إلا أن هذه الوسيلة أكثر منها نجاحا و تأثيرا ، ولقد تعاب هذه الطريقة بأن أغلب الطلاب الذى يرسلون لبلادهم يعودون متخصصين فى العلوم الدينية ، وقد يكونون نبهاء للغاية فتحرم منهم تخصصات ذات خطر ، بيد أن الأمر يمكن تداركه بإرسال الأبناء فى سن مبكرة وفى الإجازات الطويلة ، بل يمكن تدبير فرص دراسية لهم فى بلادهم ن وعموما فإن تخصص البعض و بخاصة من النابهين فى العلوم الشرعية من الأمور المرغوبة حتى لا يكون الديدن فيمن يدرس الدين أن يكون من المتردية والنطيحة وما أكل السبع كما أشار لمثل ذلك الشيخ محمد الغزالى رحمه الله

5- المكتبة العربية

للمكتبة العربية دورها فى تثبيت الهوية لدى الناشئين فهى دعوة للقراءة فى التراث الإسلامى الخالد ، وثمرات العقول العربية المعاصرة ، و الحرف العربى إذ يزينها هو دعوة صامتة للعناية به ، والحرص على تعلمه ، والدفاع عنه ، لارتباطه بالقرآن ، ولو شجع الطالب أن تكون له مكتبته الخاصة من الكتب العربية إمعان فى تحبيبه فى الكتاب العربى والحرف العربى. وحبذا أن تزود المدارس التى بها جاليات عربية ، بركن للكتب العربية وهو مسلك لن يقتصر نفعه على المسلمين بل يعم غيرهم ، كما أنه مسلك حضارى فى تثبيت الهوية ، وشدة الارتباط بالحضارة الإسلامية ، ومقاومة حالة الافتتان بالغرب ، وسهولة الاستهواء.

6- تعزيز شعور الاعتزاز بالانتماء الحضارى :

إن شعور الانتماء للحضارة الإسلامية حتى لمن يعيش خارج حدود العالم الإسلامى هو من أهم وسائل تشكيل الهوية ، ودعم الانتماء ، ومن وسائل ذلك التى طبقت بنجاح فى التجربتين اللتين عنينا بدراستهما هنا ما يلى :

1- العناية بالحرف العربى

2 – إثراء اللغة المحلية بالمفردات العربية

3– الاحتفاء بالمظاهر الثقافية العربية والمحافظة علبها فى الملابس والعادات الاجتماعية

4– إنشاء المدارس العربية بدءا بصورتها الأولية المتمثلة فى الكتاب وانتهاء بما بات يعرف بدار العلوم .

5- العناية الفائقة بتنظيم رحلات الحج والعمرة رغم ما اكان يكتنف ذلك من مشاق

7- القيام بواجب الدعوة إلى الله لهداية من يعيشون بين ظهرانيهم من غير المسلمين.

سادسا : الخاتمة ، والنتائج ، والتوصيات

إن اللغة العربية التى تقاتل اليوم فى أكثر من موقع تشبثا بالبقاء ، وحرصا على أداء دورها النبيل ورسالتها الحضارية ، يمكنها أن تكون إضافة حقيقية للمجتمع البشرى ، ووسيلة فعالة لإشاعة الأمن والسلام فى ربوع الأرض من خلال حوار حضارى بناء . وهى بكل تأكيد ليست عائقا للتقدم كما أنها ليست عائقا فى سبيل التفاهم البشرى ، بل على النقيض من ذلك قد تكون عاملا مساعدا مهما فى هذا السبيل ، وهى على أهميتها فى بناء هوية المسلم لن تكون عائقا لاندماجه الفاعل فى مجتمعه الذى يعيش به فى دول المهاجر بالشرق والغرب ، وإن تجربة التاريخ تثبت ذلك ، و ينبغى الاهتمام بتعليم اللغة العربية للاجيال الناشئة فى الغرب ، والاستفادة من آثار ذلك الايجابية على شخصياتهم ، وأنماط حياتهم ، وهى تعد فى ذلك بكثير .

وفى هذه الورقة ناقشنا السبل التى تكفل للمسلمين وبخاصة أبناءهم من الأجيال الناشئة اندماجا إيجابيا فى المجتمع مع الحفاظ على معالم الهوية ، والانتماء الحضارى الإسلامى.

وقد درسنا تجربتين حضاريتين تاريخيتين ناجحتين ، وخلصنا إلى أن اللغة العربية عنصر مهم من عناصر بناء الهوية ، وتثبيتها ، والمحافظة عليها بالإضافة إلى عناصر أخرى أثبتناها ، ولذا دعت الورقة للاهتمام باللغة العربية ، وقدمت عدة توصيات بخصوص ما ينبغى أن يكون عليه كتاب لتدريس اللغة العربية بواسطته فى أوربا .

ومما يمكن إضافته – إلى ما ذكر مستلخصا من تجربتى الحضارمة فى جنوب شرق آسيا ، والهنود فى لكناؤ/الهند - من وسائل العناية بربط النشء بمعالم هويتهم مايلى :

1- إقامة مراكز تحفيظ القرآن الكريم
2- إنشاء مراكز تعليم اللغة العربية
3- تنظيم المخيمات اللغوية وبخاصة فى البلاد العربية
4- إقامة معارض الخط العربى ، مع فعاليات متنوعة تتيح فرصة التمتع بجمالياته والتعلق به.
5- تدشين قناة فضائية تنطق فى أغلب برامجها أو ثلثها على الأقل باللغة العربية أو شراء ساعات بث بالعربية (الاستفادة بالقنوات العربية أصلا)
6- إقامة المتحف العربى حيث لا يوجد متحف يعرض لتاريخ وواقع مسلمى أوربا
7- عقد ندوات حول قضايا الوطن الإسلامى

وبعد ، فأرجو الله العلى القدير أن ينفع بهذه الأفكار جميعا ، وأن يتقبلها عنده بقبول حسن ، إنه خير مسئول ، وخير مأمول.

سابعا : المصادر والمراجع

أولا : مصادر ، ومراجع باللغة العربية

1- ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم
2- محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من داخلها ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ط5 ، 1978

3- أحمد مصطفى أبو الخير ، اللغة العربية فى القانون الدولى ، والعلاقات الدولية ، والمنظمات الدولية والإقليمية ، مكتبة نانسي ، دمياط ، 2004
4- أحمد مصطفى أبو الخير ، الاتفاقية الدولة لحماية التنوع الثقافى ، الناشر المؤلف ، دمياط ، 2008
5- محمد الغزالى ، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و غعلان الأمم المتحدة ، دار الدعوة الإسكندرية ، ط1 ، 1993
6- أحمد شيخ عبد السلام ، دور اللغة فى الفعل الحضارى : أنموذج لغة القرآن الكريم ، مركز الفكر الحضارى والتربية ، الشروق ، كوالا لمبور ، ماليزيا ، ط1 ، 2001
7- أحمد شيخ عبد السلام ، العولمة اللغوية فرصها وتحدياتها لوحدة الأمة الإسلامية ، مقال منشور فى مجلة وحدة الأمة الصادرة عن المعهد العالمى لوحدة الأمة بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، السنة الثانية ، العدد الثانى ديسمير 2004
8- عاصم شحاده على ، العولمة اللغوية ، وأثرها على لغة الأطفال فصل فى كتاب علاء حسنى المزين (محرر) ، فى رحاب اللغة القرآنية ، مركز البحوث بالجامعة الإسلامية العالمية ، كوالالمبور ، ماليزيا ، ط1، 2011
9- علاء حسنى المزين ، الإسلام فى ماليزيا ، بحث غير منشور فى أطروحة الدكتوراه بعنوان الاتجاه الإسلامى فى الشعر الحديث بين مصر وماليزيا ، وعلاقته بالثقافة العربية الإسلامية ، دار النشر للجامعات ، مصر ، 2011
10- نبيل شبيب ، المسلمون فى ألمانيا ، الوجود الإسلامى فى ألمانيا عبر القرن الميلادى العشرين ، من موقع المؤلف على الانترنت
11- قيصر أديب مجول ، الإسلام فى الشرق الأقصى وصوله وانتشاره ن تعريب دكتور نبيبل صبحى ، نسخة مصورة بدون تاريخ ،
12- يوسف القرضاوى ، الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ط1، 1994
13- سعيد الأفغانى ، من حاضر اللغة العربية ، دار الفكر ،بيروت ، ط2، 1971
14- سليمان محمد توبو لياك ، الأحكام السياسية للأقليات المسلمة فى الفقه الإسلامى ، دار النفائس ، عمان ،ط1 ، 1997
15- عواد على ، دمج المسلمين فى المجتمعات الأوربية بين رؤيتين ، دورية المعهد الملكي للدراسات الدينية-عمّان (نقلا من مدونة نبيل شبيب 2012/5/19)
16- أبو الحسن الندوى ، فى مسيرة الحياة ، دار القلم ، دمشق ، ط1، 1987
17- أبو سعيد عبد المجيد ، قضايا الصراع والحوار بين الإسلام والغرب وسيل معالجتها ، بحث منشور فى مجلة وحدة الأمة الصادرة عن المعهد العالمى لوحدة الأمة بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، السنة الثانية ، العدد الثانى ديسمير 2007
18- صالح بن حسين العايد ، الإسلام والغرب تعايش وتعاون ، من بحوث المؤتمر العلمى المنعقد فى بيونس أيرس بالأرجنتين بعنوان : الإسلام فى أمريكا اللاتينية (حضارة وثقافة) منشورات رابطة العالم الإسلامى - السعودية ن 1428هـ

19- تركى بن سهو العتيبى ، حاجة الشعوب الإسلامية إلى اللغة العربية ، من بحوث الملتقى الإسلامى الأول لدول آسيا المنعقد فى كولمبو بتاريخ 1993-منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – السعودية – 1416 هـ
20- أحمد مصطفى عفيفى ، اللغة وحوار الحضارات فى عصر العولمة من بحوث مؤتمر إسهامات اللغة والأدب فى البناء الحضارى للأمة الإسلامية المنعقد بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، نشر قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة ، ط1، 2007
21- خليفة أحمد العتيرى ، اللغة العربية والهوية ، من بحوث المؤتمر السنوى الدولى المقام من قبل المجلس الدولى للغة العربية فى بيروت لبنان فى الفترة من 19-23 مارس 1012 ، كتاب المؤتمر رقم 4
22- محمد محمود داود ، علاقة اللغة العربية بالسيادة الوطنية والهوية ، من بحوث المؤتمر السنوى الدولى المقام من قبل المجلس الدولى للغة العربية فى بيروت لبنان فى الفترة من 19-23 مارس 1012 ، كتاب المؤتمر رقم1
23- صالح بن عبد الله بن عبد المحسن الفريح ، الهوية الإسلامية حقيقتها ودور التعليم فى ترسيخها ، من بحوث مؤتمر مناهج التعليم الدينى فى العالم الإسلامى التحديات والآفاق المنعقد فى الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا فى الفترة من 6-8 ديسمبر 2005بتنظيم المعهد العالى لوحدة الأمة بالجامعة

ثانيا : مصادر ومراجع بالانجليزية

1- Anis Ahmad ,The cultural Dilemma of Muslim Communities in Disapora, An Article published in International Journal of Muslim Unity .Vol.4.No.2.Dec.2006
2- Syed Osman Alhabashi and Nik Mustapha Nik Hassan, Islam and Tolerance, IKIM, Kuala Lumpur,Malaysia ,1996
3- Ahmad Shehu abdussalam , Islam and Language ,Al-Hilal Publishing ,Kuala Lumpur Malaysia ,1999.
4- Ismail R.Faruqi , Islam and Culture , ABIM ,Kuala Lumpur Malaysia ,1980.
5- Asmah Haji Omar, The linguistic Scenery in Malaysia, DBP, Kuala Lumpur Malaysia, 1992